

## مظاهر التعريب في المغرب الكبير في العصور الوسطى

د. علي أحمد  
باحث ومؤرخ

في الحديث عن مظاهر التعريب في المغرب الكبير في العصور الوسطى، تجدر العودة إلى الحقبة القديمة التي سبقت ظهور الإسلام وانتشاره في هذه المنطقة. ففي هذه الحقبة نرى أن مظاهر التعريب في المغرب كانت طاغية بوجه عام، وبخاصة في المناطق الساحلية الممتدة من تونس في الشرق إلى طنجة في الغرب، ولعل أهم قاعدة انتشر منها تيار تعريب المنطقة، هي مدينة قرطاجة بتونس، التي بناها الفينيقيون رواد عملية التعريب في المغرب الكبير في العصور القديمة، لتكون عاصمة لهم على مدى أكثر من ثمانية قرون متواصلة، ولتكون كذلك أهم عاصمة في المغرب الكبير وفي الغرب الأوربي، على صعيد نشر العلم والثقافة وترويج حالة اقتصادية نشطة، وبخاصة في مجال التجارة التي شملت عملياتها مختلف مناطق المغرب الكبير ومناطق القارة الأوربية، ساعدهم على ذلك امتلاكهم لأسطول كبير وخبرة واسعة في شؤون الملاحة البحرية.<sup>1</sup>

ولعل من أعظم مظاهر التعريب في المغرب الكبير في العصور القديمة، هو انتشار اللغة الفينيقية في صفوف سكان المغرب الكبير وغيرهم، مما ساعد على انتشار اللغة العربية الحالية بسرعة فائقة، وذلك لوجود تشابه كبير في جذور اللغة العربية والفينيقية،<sup>2</sup> ولم تستطع كل محاولات الرومان وغيرهم، أن تقضي على التأثير العربي الفينيقي، الذي شكل أساساً متيناً بنى

---

<sup>1</sup> أحمد توفيق المدني، قرطاجة في أربعة عصور، طبعة تونس، 1926، ص 33 وما بعدها.

<sup>2</sup> أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص 26

## التعريب ..... العدد الثاني والأربعون - رجب / حزيران (يونية) 2012م

عليه العرب المسلمون في العصور الوسطى بناءً عربياً خالداً في كل أجزاء المغرب الكبير. أما في العصور الوسطى موضوع هذا البحث، فقد سارت عملية التعريب في المغرب الكبير مسيرة متباينة، وذلك بسبب الظروف السياسية والاجتماعية، التي كانت تظهر على السطح بين الفينة والأخرى. ورغم الصعوبات التي كانت تظهر على السطح بين الفينة والأخرى، ورغم الصعوبات التي رافقت هذه العملية، فإنها بقيت مستمرة بنجاح، ساعد على ذلك سيادة مفهوم عام في المغرب الكبير، هو أن الإسلام ديناً وعقيدةً يساوي في نظر المغاربة مفهوم العروبة، وتطور هذا الأمر حتى أصبح الإسلام يعني العروبة حتماً، وكذلك العروبة تعني الإسلام، ودليل ذلك أن معظم الحركات المناوئة للعرب، كانت تبتعد عن إثارة قضية الدين إلا في حالات نادرة سنأتي على ذكرها في حينها بما يتناسب مع منهج وسياق هذا البحث.

وهنا يجب أن نلفت النظر، إلى أن السبب في التركيز على ظاهرة التعريب في المغرب الكبير، أن فتح المغرب الكبير<sup>1</sup> كان قد أنجز في العصر الأموي، هذا العصر الذي تميز بوجه خاص بتركيز حكامه على مسألة الاعتماد على العنصر العربي في الحكم والإدارة العامة، انطلاقاً من أن العرب هم الذين أنجزوا توحيد تلك الدولة المترامية الأطراف، التي حكمها الخلفاء الأمويون بنجاح إلى حد ما.

فقد كان المغرب الكبير يشكل إحدى الولايات العربية في الدولة الأموية، التي كلفت الأمويين جهوداً كبيرة ومضنية وأموالاً جمة وخسائر لا فتة في النفوس والدماء، ذلك لأن المغاربة من العرب لم يكونوا وحدهم، الذين في يدهم القرار والحكم أو الفصل في الأمور الكبيرة، بل كان إلى جانبهم عناصر أخرى غير عربية، مثل الروم واللاتين واليهود والوثنيين، وقفوا منذ البداية في وجه كل الحملات العربية، التي أرسلت من مصر والشام لفتح المغرب الكبير، وقد نجحوا في العديد من المناسبات في كبح جماح التقدم العربي، مما جعل بُرهة الفتح

---

<sup>1</sup> بدأ فتح المغرب الكبير في سنة 21 وانهت في السنة 90 هـ.

## .....مظاهر التعريب في المغرب الكبير في العصور الوسطى

تطول حتى زادت على سبعين عاماً.<sup>1</sup>

إن الذي حصل من صعوبات وخسائر فادحة في المغرب الكبير أثناء الفتح، أدى بالأمويين إلى اتباع سياسة قاسية جداً، فقد وقعوا في مغالطة كبيرة، حينما عدّوا المغاربة برمتهم عنصراً لا يمت إلى العرب بصلة كبقية العناصر الأخرى من ترك وفرس وغيرهم، فمنعواهم في البداية من القيادة، ورفضوا مساواتهم بالمشاركة في مسألة العطاء أو المعاملة بوجه عام، لكن ذلك لم يكن عاماً في كل الأوقات، بل اقتصر ذلك بوجه خاص على المدة، التي شغلها عقبة بن نافع الفهري والياً على المغرب الكبير، فهو لم يتمكن من فهم الواقع الذي كان سائداً في المغرب الكبير أثناء ولايته،<sup>2</sup> فنظر إلى المغاربة على أنهم من الدرجة الثانية، مثلهم في ذلك مثل بقية الجماعات من الموالي من غير العرب.

لكن أبا المهاجر دينار الذي خلف عقبة في ولاية المغرب، انتفت إلى الضرر الذي سببته سياسة عقبة في المغرب الكبير، فأعلن منذ أيامه الأولى في الولاية عن سياسة العدل والمساواة بين المشاركة والمغاربة على اعتبار أن الجميع من أصول عربية واحدة، وقد كان تصرفه هذا لفئة عظيمة على طريق تعزيز القوة العربية والوجود العربي بالمغرب الكبير، ليكون العرب قوة فاعلة تستطيع مجابهة كل المتربصين بعملية التعريب، ولا سيما البيزنطيون واليهود.

وكان من نتيجة هذه السياسة الناجحة، أن دخلت مجموعات كبيرة من المغاربة في الإسلام تحت المظلة العربية، وكانت قبيلة أوربة المغربية بزعامة كسيلة أهم هذه المجموعات، التي أعلنت على الفور استعدادها للسير في ركب المشروع العربي في المغرب الكبير، ما دام هذا المشروع يوفر لهم الحرية والعدل والاستقرار.<sup>3</sup>

<sup>1</sup> علي أحمد، تاريخ المغرب القديم والإسلامي، طبعة جامعة دمشق، 2007.

<sup>2</sup> شغل عقبة بن نافع ولاية المغرب الكبير من سنة 50-55هـ حيث عزل ثم أعيد في سنة 62 هـ وبقي حتى استشهد في سنة 65 هـ.

<sup>3</sup> ابن عبد حكم، فتوح مصر والمغرب، ص 72. المالكي، رياض النفوس، ص 25

## التعريب ..... العدد الثاني والأربعون - رجب / حزيران (يونية) 2012م

وفي ولاية حسان بن النعمان الغساني على المغرب الكبير، تابع انتهاج سياسة المواعمة بين المشاركة والمغاربة على أساس عربي واضح الرؤى، مما ساعده على تحقيق إنجازات كبيرة بالمغرب الكبير. يضاف إلى ذلك، أنه كان يرى أن أخطر ما يتهدد المشروع العربي آنذاك، هو الوجود البيزنطي واليهودي. فقد ركز بوجه خاص على تدمير مدينة قرطاجة وإقامة مدينة تونس إلى جوارها، ذلك لأنه كان يعدها قاعدة بيزنطية سببت للعرب الكثير من المصائب والخسائر، التي ترافقت مع مجريات الفتح العربي للمغرب الكبير. وكان قبل ذلك قد توجه إلى تقويض الوجود اليهودي بمنطقة الأوراس بجنوب شرق الجزائر، وكان هذا الوجود يتمثل آنذاك بقبيلة جراويّة القوية، بزعامة الكاهنة دهايا، التي تميزت بشدة كرهها للعرب، وقد تجلّى ذلك بموقفها المضادّ لهم في مدة ولاية حسان بن النعمان، الذي استطاع بعد تعثر ومعاناة، أن يلحق الهزيمة في صفوف أتباعها وأن يضع حداً للوجود اليهودي بمنطقة الأوراس في الجزائر.<sup>1</sup>

وحينما تولى موسى بن نصير ولاية المغرب الكبير بعد عزل حسان بن النعمان الغساني، تابع السير على نهج حسان بن النعمان في الحرص على استمرار عملية التعريب، التي كان من أهم أسسها في نظره، مسألة مساواة المغاربة بالمشاركة على الصعد كافة، وهو الذي شهد ما حدث لعقبة بن نافع، الذي تجاهل هذه المسألة نهائياً، وأدت في النتيجة إلى سقوطه شهيداً بتهودة في جنوب شرقيّ الجزائر، التي أطلق عليها اسم سيدي عقبة إجلالاً وإكباراً لشخصه وأعماله الجليلة في المغرب الكبير على صعيد عملية التعريب.<sup>2</sup>

اختلفت أحوال التعريب في المغرب الكبير بعد سقوط الدولة الأموية، وأصبح المغرب مسرحاً لنشاط كثير من المغامرين، الذي حاولوا صنع أمجاد معينة خاصة بهم تحت حجج

---

<sup>1</sup> ابن عذاري، البيان المغرب، ص34 وما بعدها. المالكي، رياض النفوس، ص35 ابن الاثير، الكامل في

التاريخ، ج4، ص 181

<sup>2</sup> سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، ص169

## .....مظاهر التعريب في المغرب الكبير في العصور الوسطى

مختلفة ومتباينة، فقد بدأ الخوارج يصلون من المشرق إلى المغرب الكبير مستغلين بعض الثغرات السياسية، التي لم ينتبه لها الأمويون المتأخرون، وهي التي تجسدت بالمعاملة غير العادلة وغير الإنسانية للمغاربة بوجه عام، مما ساعد على ظهور نقمة واسعة النطاق في نفوسهم، وجعلهم يسبغون وراء الخوارج، الذين أعلنوا مبادئ راقية في العدل والمساواة وتكافؤ الفرص وحق الترشيح للخلافة، بصرف النظر عن الأصل والجنس واللون، بشرط أن يحصل المرشح على موافقة الأغلبية. وقامت ثورة خارجية بالمغرب الأقصى سنة 122هـ/741م، كانت تستهدف في المقام الأول السلطة العربية المتمثلة بالوالي الأموي. وقد نجحت هذه الثورة نجاحاً باهراً، بعد أن فشل الخليفة هشام بن عبد الملك، أن يضع حداً لها رغم إرساله جيشاً قوياً لقمعها بقيادة كلثوم بن عياض القشيري، وهو الجيش الذي أرسله بعد قوله المشهور: (سأغضب لهم غضبة عربية وسأرسل لهم جيشاً يكون أوله عندهم وآخره عندي). ومن هذا القول يفهم أن هشام بن عبد الملك، كان يعرف تماماً ما تشكله ثورة الخوارج من أخطار على الوجود العربي بالمغرب الكبير، ومن ثم حرصه على استمرار هذا الوجود بكل الوسائل<sup>1</sup>.

لم يتمكن الخلفاء الأمويون الذي جاؤوا بعد هشام بن عبد الملك أن يفعلوا شيئاً، وبخاصة في ميدان فرض سياسة الدولة العربية الأموية في المغرب الكبير، فوقع معظمه في قبضة الخوارج، حتى جاء العباسيون فحاولوا أن يعيدوا الأمور إلى سابق عهدها، ولكنهم أخفقوا في ذلك إخفاقاً كبيراً، واقتصر نجاحهم في السيطرة على المغرب الأدنى (تونس)، الذي بقي يسير في ركب الدولة العباسية، حتى جاء الفاطميون في نهاية القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، فضموه إلى بقية أجزاء المغرب الكبير، هذه الأجزاء التي شكلت دولة موحدة تحت حكم الفاطميين.

---

<sup>1</sup> ابن عذاري، البيان المغرب، ج1، ص 51 وما بعدها. مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص31. المقري، نفح الطيب، ج1، ص155 وما بعدها.

## التعريب ..... العدد الثاني والأربعون - رجب / حزيران (يونية) 2012م

وقد حافظ المغرب الأدنى (تونس)، الذي شهد في هذه المدة حكم الأسرة الأغلبية، على السياسة العربية الواضحة، التي كانت الدولة العباسية تنفذها باتزان ووضوح، فكل ما طُبق في العصر العباسي الأول من عمليات تعريبية في الشرق، طبق مثيله في المغرب الأدنى في ظل الدولة الأغلبية، التي كانت في عصرها واجهة عربية واضحة المعالم في كل المجالات. فقد عاش في ظل دولة الأغلبية مجموعات بشرية من مختلف الأجناس، لم يذكر أنهم عانوا من أية مصاعب أو مضايقات، ذلك لأن سياسة الحكام الأغلبية، كانت سياسة عربية واضحة، ترى حق العرب في الحكم والسيادة والثقافة، وهو الأمر الذي يحتم عليهم استيعاب الآخرين بالاعتماد على هذا الواقع الإيجابي، الذي ابتعد عن كل أشكال التفرقة العنصرية أو الدينية، ودليل ذلك أن الفقيه المغربي المعروف سحنون، حُرّم من ممارسة كل وظائفه العلمية والدينية، حينما شعر الأغلبية أنه يعادي المعتزلة<sup>1</sup> في الوقت الذي كان العباسيون فيه وكذلك الأغلبية، يرون في المعتزلة حركة عربية مجددة على الصعيد العملي العقلاني، وهو أمر يساعد العرب بصورة عامة للوقوف في وجه الحركات الأجنبية المناوئة للخلافة العباسية، التي كانت من أقوى رموز الوجود العربي وأدواته حتى نهاية العصر العباسي الأول، وهذه الحركات كانت كثيرة ومتعددة. ومن منجزات التعريب التي حرص الأغلبية على صنعها، تلك التي نتجت عن حملاتهم في جزيرة صقلية وشرق وجنوب إيطاليا، وفي عدد من جزر الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط. فعلى الرغم من تعثرهم في السيطرة على صقلية وما حولها من مناطق، فإنهم طبعوا هذه البلاد بطابع الثقافة العربية، التي نقلوها إلى هذه المناطق جاهزة، وهي التي ساهمت في تطوير مجتمعات هذه المناطق، والدليل على ذلك أن حكام صقلية بعد خروج العرب منها في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي، بقوا يعتمدون على معطيات هذه الثقافة إلى وقت متأخر من العصور الوسطى. وما حرص حاكم صقلية رجار على بقاء الجغرافي الإدريسي في بلاده، إلا من هذا القبيل. كذلك فقد كان تأثيرهم في جزيرة

---

<sup>1</sup> المالكي، رياض النفوس، ص 285 وما بعدها.

## .....مظاهر التعريب في المغرب الكبير في العصور الوسطى

مالطة كبيراً، فالمالطيون حتى اليوم يتكلمون اللغة العربية مع بعض الكلمات الإنكليزية<sup>1</sup>. أما بخصوص الدول الأخرى المستقلة، التي قامت بالمغرب الكبير إلى جانب الدولة الأغلبية، وهي الدولة الإباضية بتاهرت بالجزائر، ودولة الأدارسة ودولة سجماسة في المغرب الأقصى، فمع أن هذه الدول قامت على أساس مذهبي ديني، فإنها لم تتمكن في واقع الحال أن تطبق ما جاء في برامجها المذهبية، التي كانت تنادي بها قبل أن تتجسد في دول حقيقية على الأرض، ذلك لأنها رأت أن استمرارها في الوجود، لن يكون إلا من خلال نسيان المبادئ المذهبية الدينية، أو على الأقل وضعها جانباً، لأن مصالحها الاقتصادية كانت تقتضي ذلك، وبخاصة أنها اعتمدت التجارة، التي كانت ناشطة بين غرب إفريقيا وبينها وبين الأندلس وأوروبا والدويلات المجاورة، مما جعل الجميع يتناسون الخلافات المذهبية، ويضعونها على الرف لكي تبقى مصالحهم الاقتصادية في حالة مزدهرة. وتبعاً لذلك قبلت هذه الدول جميعها في مجتمعاتها مختلف الأجناس والأعراق وأصحاب العقائد المختلفة<sup>2</sup>، فكانوا يعيشون تحت مظلة العروبة، التي جمعتهم من كل الجهات والفئات، وهي المظلة التي لم يختلف أحد عليها.

وفي نهاية القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي، وبداية القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، تمكن الفاطميون من إزالة كل الدول المستقلة بالمغرب الكبير وأعلنوا وحدة المغرب الكبير<sup>3</sup> على أساس عربي واضح المعالم، وكان ذلك ضمن مشروعهم العربي الكبير، الذي كانوا يحلمون في تحقيقه في ضم الأندلس والمشرق إلى المغرب الكبير، وإعلان الدولة العربية الواحدة، فابتعدوا عن الخلافات المذهبية والعرقية، وأعلنوا حرية واسعة في البحث العلمي في مجالات العلوم كافة، وركزوا على ذلك في العلوم الفلسفية والتطبيقية، لأنهم كانوا يرون في

---

<sup>1</sup> ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج7، ص5 وما بعدها، وج6، ص19. الحميري، الروض المعطار، ص52. القزويني، آثار البلاد، ص557. أحمد المدني، المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا، ص57 وما بعدها.

<sup>2</sup> انظر عن هذه الدول. علي أحمد، تاريخ المغرب الكبير، ص53 وما بعدها.

<sup>3</sup> هذه الدول هي: الدول الأغلبية بتونس، والإباضية بالجزائر، والإدرسية بالمغرب الأقصى والمدراية.

## التعريب ..... العدد الثاني والأربعون - رجب / حزيران (يونية) 2012م

ذلك خطوة عظيمة الأهمية على طريق إنجاز وحدة الدولة العربية، وقللوا من شأن الدراسات النظرية، ولا سيما المتعلقة منها بعلوم الدين، لأنهم رأوا فيها إثارة للخلافات والأحقاد، ومع ذلك فإنهم لم يقفوا في طريق أي مذهب من المذاهب على الإطلاق، وعاش في كنفهم مجموعات من كل المذاهب والأديان، وتمتعت هذه المجموعات بحريات واسعة، واستخدم قسم من هذه المجموعات في مجال الإدارة الفاطمية في كافة مستوياتها، ومع ذلك فلم توفق هذه الدولة على الإطلاق في تحقيق حلمها الكبير في جمع العرب في دولة واحدة، ذلك لأن القسم الأعظم من سكان الوطن العربي في الشرق والغرب وقفوا مُضادّين لها وحاربوها على أساس مذهبي بغض، سواء كان ذلك في مرحلتها المغربية أو الشرقية<sup>1</sup>. وقد شغل الغرباء دوراً سلبياً كبيراً في هذه المسألة، وبخاصة السلاجقة الأتراك ومجموعات أخرى، أعلنت راية العداء لهذه الدولة، تحت عنوان حماية الدين والسنة، وكأن الفاطميين كانوا خارج دائرة السنة والدين. لكن سبب ما جرى كان يتعلق بعروبة هذه الدولة وحرصها على السيادة العربية القائمة على العدل والمساواة والعلم والفضيلة، ومحاربة كل أشكال العنصرية والمذهبية الدينية، وهي أمور لا تعجب الغرباء، فانبهروا للتصدي لهذه الدولة، واستطاعوا أن يستقطبوا إلى جانبهم مجموعات كبيرة من سكان البلاد من العرب الأصليين، من خلال التظاهر بالحرص على السنة وحمايتها من الخطر الفاطمي، الذي صورته الغرباء في طليعة الأخطار المؤثرة.

ونجحوا مع الزمن بإسقاطها، فدخلت المنطقة العربية، وبخاصة في المشرق في مرحلة جديدة، كانت من أقسى مراحل تاريخها على الإطلاق، ذلك لأنها سقطت في أيدي الغرباء، الذين جعلوها خلال أكثر من ثلاثة قرون نهياً لجشعهم ومطامعهم، فأفقرت مواردها الاقتصادية والعلمية<sup>2</sup>.

---

<sup>1</sup> استمرت المرحلة المغربية من سنة 297 إلى سنة 461 هـ واستمرت المرحلة المشرقية من سنة 461 حتى سنة 567 هـ.

<sup>2</sup> ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص353. المقرئ، اتعاظ الحنفا، ص316 وما بعدها.



## .....مظاهر التعريب في المغرب الكبير في العصور الوسطى

لكن الذي أخفق الفاطميون في تحقيقه في المغرب الكبير، نجح المرابطون في إنجازه بسرعة كبيرة، وبخاصة حينما صنعوا وحدة المغرب والأندلس لأول مرة بعد سقوط دولة الأمويين، وكان لهذه الوحدة تأثيرها الإيجابي البالغ في الحفاظ على الأندلس، وإنقاذها من سقوط كان محتملاً بيد حركة الاسترداد الوطنية الإسبانية، التي كان يقودها بجدارة وقوة الفونسو السادس. وخلال عملية توحيد المغرب الكبير، اصطدم المرابطون بمقاومة شديدة من قبل مجموعة من المغاربة، كانوا قد كونوا دويلة صغيرة، عُرفت في التاريخ المغربي (الدولة البرغواطية)، التي شغلت كل منطقة تامسنا أي تلك المنطقة المحصورة بين نهري بورقراق وأم الربيع، حتى المحيط الأطلسي بالملكة المغربية، وهي منطقة الرباط الحالية. وقد ركز المرابطون منذ البداية على حرب هذه الدويلة من منطلقين هامين، الأول ديني يعتمد على أن الدولة البرغواطية، كانت تخالف الشريعة الإسلامية في الكثير من المسائل<sup>1</sup>، والثاني قومي عربي يعتمد على أنهم كانوا يعدون أنفسهم مجموعة غير عربية على الإطلاق، فقد ذكر أحد قادتهم وهو صالح البرغواطي، أنه نبي ورسول مبعوث إلى البرغواطيين باللهجة المغربية، وكان يحتج ويدعم صحة ذلك بآية من القرآن الكريم هي قوله تعالى: (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه)، وأن محمداً عربي اللسان مبعوث إلى قومه العرب<sup>2</sup>. ولعل ذلك هو الذي جعل الجميع قبل المرابطين، كالأمويين والفاطميين والزيريين والزنانتيين، يصرون على تطويع البرغواطيين، ولكنهم لم يفلحوا حتى جاء المرابطون، فألحقوا بهم هزيمة كبيرة كانت بداية النهاية لوجودهم، وأصبحت منذ ذلك الحين منطقة الرباط تحت سيطرة الدولة المرابطية.

وقد رأى المرابطون بعد أن استقرت سلطتهم بالمغرب والأندلس، أن خير ما يحمي ويحصن وحدة الدولة العربية التي صنعوها، ومن ثم تعميق جذور التعريب في كيانها، هو أنهم اعتمدوا المذهب المالكي مذهباً وحيداً للدولة، يتمثل فيه الإسلام في نظرهم، ذلك لأن الإسلام

<sup>1</sup> الإدريس، نزهة المشتاق، ص9 وما بعدها. ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 12 - 1231

<sup>2</sup> أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص292 وما بعدها.

## التعريب ..... العدد الثاني والأربعون - رجب / حزيران (يونية) 2012م

في عُرف المرابطين، ديناً قومياً عربياً، ينبغي أن لا يخضع لأي شكل من أشكال الانقسام والتجزؤ، لذا فقد قضوا على جميع المذاهب الأخرى، التي كانت تنتشر في بعض أجزاء المغرب الكبير، كالمذهب البرغواطي ومذهب الخوارج والمذهب الشيعي. ومن الطريف أن أعداءهم قلدوهم في هذا الشأن، وكان في مقدمة هؤلاء الأعداء الإسبان، الذين يمثلون حركة الاسترداد بأن يكون المذهب الكاثوليكي هو المذهب الوحيد في كل الممالك، التي تسيطر عليها حركة الاسترداد، وهي قشتالة وليون وبرشلونة وتوابيعها، ذلك لأن المذهب الكاثوليكي، هو المذهب الوحيد في نظرهم، الذي كان يمثل المذهب القومي والوطني لكل الإسبان بدون استثناء.<sup>1</sup> كذلك فقد حرص المرابطون من جهة أخرى، أن يعيدوا إلى الأذهان ضرورة إعادة اللحمة والوئام بين مغرب الدولة العربية ومشرقها، فاعترفوا بالخليفة العباسي وأعلنوا تبعيتهم له، مع أن الخلافة العباسية كانت في حالة بئس، وكأنها غير موجودة على الإطلاق بسبب سيطرة السلاجقة الأتراك عليها.

لكن أعظم أعمال المرابطين في ميدان التعريب، كانت أعمالهم في الأندلس حينما هبوا بقوة لإنقاذ الأندلس العربية من خطر الزوال، بعد أن قويت شوكة حركة الاسترداد الوطنية الإسبانية، في الوقت الذي انفرطت فيه كل أواصر المحبة والتعاون والاتصال بين زعماء الطوائف بالأندلس، حتى أصبحوا عالة على أنفسهم. وقد أحس بجسامة الخطر أكبر زعماء الطوائف قوة وسطوة وأكثرهم إحساساً بوطنيته وعروبتة، وهو المعتمد بن عباد الذي فضل أن تبقى الأندلس عربية، ولو كان ذلك على حساب وجوده في الحكم. وقد تفجر الشعور العربي فيه على أثر حادث، شعر المعتمد خلاله بالذلة والهوان، وكان ذلك أثناء حضور وفد من قبل الفونسو السادس زعيم حركة الاسترداد لقبض الجزية المستحقة على المعتمد بن عباد، وكان رئيس الوفد رجلاً يهودياً يدعى ابن شاليب، الذي قال للمعتمد بن عباد أن عيار الذهب المخصص للجزية غير كامل، ولا تتوفر فيه المواصفات المطلوبة. وأضاف مخاطباً المعتمد

<sup>1</sup> أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص 292 وما بعدها.

## .....مظاهر التعريب في المغرب الكبير في العصور الوسطى

بن عباد، أن هذا الأمر لو تكرر في العام القادم، فستكون إشبيلية مقر حكم المعتمد وما حولها هي الجزية المطلوبة، فغضب المعتمد بن عباد وخرج عن المألوف، وأمر بقتل ابن شاليب اليهودي واعتقال مرافقيه. ومنذ حدوث هذه الحادثة تبلورت قناعة المعتمد على ضرورة طلب المساعدة الفورية من المرابطين بالمغرب الكبير، من أجل إنقاذ الوضع العربي المتدهور بالأندلس. وفي سنة 478هـ/1085م، قرر طلب المعونة من يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين، على الرغم من النصيحة التي قدمت له، ومفادها أن إدخال المرابطين، إلى الأندلس، سيؤدي إلى سيطرتهم وسيادتهم عليها. لكنه لم يلتفت إلى هذه النصيحة، وأقدم على خطوته نتيجة تفكير عقلاني، اعتمد على وعي ناضج تجسد بقوله المشهور للذين نصحوه: (خير لي أن أصبح راعي جمال في المغرب من أن أصبح راعي خنازير في قشتالة)<sup>1</sup>.

لقد أدى دخول المرابطين إلى الأندلس إلى عدد من النتائج الإيجابية، فقد أعيدت الحياة إلى عرب الأندلس، وبخاصة بعد معركة الزلاقة التي انتصر فيها المرابطون على الإسبان، الذين مثلهم آنذاك أتباع حركة الاسترداد بقيادة الفونسو السادس في سنة 479هـ/1086م، ذلك لأن العرب تمكنوا في هذه المعركة الخالدة، من وضع حد لعنجهية وجبروت حركة الاسترداد الإسبانية، بعد أن تعثروا أمامها مدة طويلة من الزمن، قاربت خمسة وسبعين عاماً وحررتهم من دفع الجزية السنوية للإسبان، التي كانت تستأثر بمعظم دخول بلادهم. هذا وقد قذفت بالمعتمد بن عباد، لأن يشغل القمة بين حكام دول الطوائف عن جدارة واستحقاق، وجعلت من يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين بطلاً قومياً عربياً، يستحق كل الاحترام والتقدير، وأعادت الأمل لكل العرب بالأندلس، بأنهم سيحيون حياة كريمة بعيدة عن كل عوامل الذلة والمهانة التنبيط<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> المقري، نفخ الطيب، ج6، ص 91 وما بعدها. علي أحمد، اليهود في المغرب والأندلس في العصور الوسطى، طبعة دمشق، 1998.

<sup>2</sup> الأمير عبد الله، التبيان، ص 102 وما بعدها، ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص245، ابن الأبار، الحلة السيرة، ج2، ص99.

## التعريب ..... العدد الثاني والأربعون - رجب / حزيران (يونية) 2012م

هذا وقد نظر المرابطون إلى المشرق العربي نظرة إيجابية، ونظروا إلى الخلافة نظرة احترام وتقدير، على ضعف هيبة هذه الخلافة وعدم قدرتها على التأثير. ودعوا من جهة أخرى إلى السيادة العربية تحت السيادة العباسية، وقاموا بأعمال من شأنها تعزيز الروابط بين المشرق والمغرب، منها نشر اللغة العربية في كل أنحاء المغرب الكبير. ومن ناحية أخرى عبّر المرابطون عن اعترافهم بالسيادة الروحية للخليفة العباسي، وذلك بطبع اسمه على النقود والدعاء له على المنابر، فقط طلب يوسف بن تاشفين من الخليفة العباسي المستظهر تقليده حكم المغرب فجاءه التقليد، واعترف الخليفة بلقبه أمير المسلمين وناصر الدين الذي اتخذه ليتميز عن الأمراء الآخرين (أمراء القبائل)<sup>1</sup>.

لكن الذي يؤخذ على المرابطين بوجه عام، هو مسألة اعتمادهم في الحكم على طبقة الفقهاء، الذين أسأوا إلى القضية العربية وإلى حركة التعريب بوجه خاص، فقد لجأ الفقهاء بعد أن تمكن المرابطون واستقر حكمهم بالمغرب والأندلس، لجؤوا إلى التدخل في الشؤون الدينية لغير المسلمين، ولاسيما تدخلهم في شؤون المستعربين<sup>2</sup>. وقد أدى هذا التدخل الأرعن إلى تحول المستعربين من دعم حركة التعريب والوجود العربي بقدر كبير في الأندلس، إلى دعم حركة الاسترداد، فقد تحرك هؤلاء المستعربون لمناهضة سلطة عربية هي سلطة المرابطين، ذلك لأنهم وجدوا في حكم المرابطين خطراً مباشراً عليهم، لأن هذا الحكم كان في نظرهم غير مستقل عن تسلط الفقهاء، وبدلاً من أن يكون كذلك فإنه اعتمد عليهم اعتماداً كبيراً، لم تشهد له الأندلس مثيلاً على الإطلاق. ومن ذلك أن الفقهاء أقنعوا يوسف بن تاشفين بتهديم كنيسة للمسيحيين بباب البيرة بغرناطة، كانوا قد شيدها في عصر دول الطوائف، مستفيدين من جو التسامح الذي ساد في هذا العصر<sup>3</sup> وهذا ما أثار حقد المستعربين المسيحيين

<sup>1</sup> مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص 71.

<sup>2</sup> المستعربون هم مجموعة من الإسبان بقيت على دينها المسيحي، وتبنت معطيات الثقافة العربية، وبقيت مواكبة للدولة العربية إلى زمن المرابطين.

<sup>3</sup> ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ص 114.

## .....مظاهر التعريب في المغرب الكبير في العصور الوسطى

على المرابطين، مع أنهم لم يكونوا حتى هذا الموقف قد تحركوا لمقاومة السلطة العربية، على الرغم من ظهور حركة الاسترداد الوطنية الإسبانية منذ عدة قرون قبل هذا الحادث.

أدى هذه الحادث الذي تسبب به الفقهاء على عاداتهم في إثارة المشاكل المذهبية<sup>1</sup> المقيتة، أدى إلى انتقال المستعربين إلى معاضدة حركة الاسترداد الوطنية الإسبانية لأول مرة في تاريخ الأندلس، ذلك لأنهم كانوا يرون في هذه الجبهة حصناً يحميهم من تعصب الفقهاء، الذين يديرون شؤون الحكم المرابطي.

وقد ساعد هذا الأمر قائد حركة الاسترداد الفونسو على اختراق أراضي الأندلس بدءاً من الشرق، حتى وصل إلى غرناطة وقرطبة، ثم إلى البحر المتوسط في الجنوب، وكان يرى في كل مكان وصله ترحيباً بالغاً من المستعربين، بعد أن فقدوا الأمل في تحسن أحوال المرابطين في ميدان إدارة الحكم المرابطي على أساس مبادئ العروبة في العدل والمساواة بين الناس على اختلاف أجناسهم.<sup>2</sup>

ولعل تحول طبقة المستعربين عن دعم الوجود العربي بالأندلس، من أخطر ما واجهته حركة التعريب في المغرب الكبير والأندلس على حد سواء.

كما تسبب الفقهاء في ضربة أخرى مؤلمة لحركة التعريب في العصر المرابطي، تجسدت بإبعاد الناس عن الأخذ بأسباب العلم والتقدم والتطوير، فقد التزموا بكتب الفروع على الصعيد الديني، بمعنى أنهم استعاضوا بالمؤلفات الحديثة التي تعود إلى زمنهم أو قبل ذلك بقليل، وتركوا العودة إلى الأصول، التي يمكن من خلالها دعم مسيرة التعريب، عن طريق الاجتهاد والاستنباط والابتعاد عن التقليد، الذي التزموا به طوال حياتهم.<sup>3</sup>

<sup>1</sup> لا نقصد كل الفقهاء، بل نقصد منهم رواد الفتنة وخلق المشاكل.

<sup>2</sup> ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ص115 وما بعدها، علي أحمد، تاريخ المغرب الكبير القديم والإسلامي، ص154

<sup>3</sup> ليفي بروفنسال، الإسلام في المغرب والأندلس، ص 250.

## التعريب ..... العدد الثاني والأربعون - رجب / حزيران (يونية) 2012م

يضاف إلى ذلك أنهم شنوا حرباً قاسية على الحركة الفكرية، التي تعتمد منهج الاستقراء والتجربة أسلوباً لها، وهذا الأمر أضر كثيراً بالوجود العربي في المجال العلمي بوجه عام. وقد تجسد ذلك بالهجوم على الفلسفة العقلانية، التي طورها المتفوقون من المفكرين العرب كي تكون سفارتهم الإيجابية إلى كل جهات الأرض وخدمة الإنسانية، على طريق التقدم والازدهار وتسخيرها في الكون لخدمة الإنسان بعامة. ومع ذلك فقد استطاع بعض الفلاسفة المتفوقين كابن باجة، أن يضع أكثر من خمسين كتاباً في فلسفة العقل والعلوم، نجا منها حتى اليوم ثلاثة كتب هي (الكلام في اتصال العقل بالإنسان) و(رسالة الوداع) و(تدبير الموحد). وهي كتب مفيدة استفادت الإنسانية بعامة من مضمونها العلمي العربي المتقدم<sup>1</sup>.

وقد كان للمغاربة الذين هاجروا إلى المشرق العربي لأسباب مختلفة، كانت لهم أياد بيض في معظم الحقول التي عملوا بها في بلاد الشام ومصر والعراق، فقد كانوا أوفياء لعروبته في كل الأوقات، وذلك من خلال الأعمال التي مارسوها في العلوم كافة، ولعل من أهم علمائهم في المشرق العربي، كان الطرطوشي صاحب كتاب (سراج الملوك) الذي يقال، إنه هو الذي أوحى لابن خلدون وفتح الباب أمامه واسعاً في ميدان علم الاجتماع، ومنهم ابن معطي الذي ألف في النحو ألفية للتعريف بقواعده وتفصيله<sup>2</sup>.

أما في عصر الموحدين<sup>3</sup>، فقد شهدت عملية التعريب انطلاقة واسعة النطاق، حتى قيل إن عصر الموحدين كان من أهم عصور التعريب في العصور الوسطى، بعد عصر الدولة الأموية في المشرق، فقد نشط العلماء فركزوا على علوم ذات تأثير قوي في المجتمع، وبخاصة العلوم الفلسفية العقلانية، التي مثلها خير تمثيل العالم العربي المبدع ابن رشد. ولولا وجود مجموعة من الفقهاء المتعصبين، الذين استطاعوا السيطرة على عقول بعض الحكام

<sup>1</sup> ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص515. المراكشي، الذيل والتكملة، ج2، ص529. علي أحمد، المؤثرات الحضارية العربية في الغرب الأوربي، طبعة دمشق، 1997

<sup>2</sup> انظر علي أحمد، الأندلسيون في بلاد الشام، طبعة اتحاد الكتاب العرب، 2007.

<sup>3</sup> بدأ هذا العصر سنة 543 وانتهى سنة 668 هـ.

## .....مظاهر التعريب في المغرب الكبير في العصور الوسطى

الموحدين في أوقات معينة، لكان عصر الموحدين تفوق على كل العصور العربية في المشرق والمغرب.

لقد اصطبغ الناس في هذا العصر في المغرب والأندلس بصبغة الثقافة العربية دون غيرها، وزادوا في ذلك أنهم وسعوا رقعة انتشار القبائل العربية، التي جاءت إلى المغرب الأدنى (تونس) في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، بأن نقلوا قسماً منها إلى المغرب الأقصى والأندلس<sup>1</sup> وحافظوا من جهة أخرى على احترام النظرية، التي تقول بوجود ضرورة تحقيق وحدة الجناح الشرقي مع الجناح الغربي للوطن العربي الكبير، وقد ظهر ذلك واضحاً في مبادئ دعوة محمد بن تومرت، الذي كان يروج بأن رسالته مستمرة حتى قتال الدجال بفلسطين، وكذلك ظهر في جزء من برنامج الخليفة يعقوب المنصور، الذي كان يعول على الذهاب إلى مصر وغيرها من بلدان المشرق لوضع حد لما يجري فيها من أمور منكرة على حد زعمه.

كما استمرت في سيرها سيطرة الثقافة العربية الواحدة لجناحي الدولة العربية متمثلة في المشرق والمغرب بانتقال التيارات من بلد إلى آخر، وتعدُّ حركة الموحدين تجديداً من ناحية عدم اقتصارها على تغليب تيار واحد، لأن صاحبها المهدي بن تومرت مزج تيارات فكرية وفقهية ودينية وسياسية في عقيدته، التي يرى فيها عنصر التشيع إلى جانب الأشعرية الغزالية والمذهب الفقهي الظاهري.

لذلك فقد ازدهرت في أيام الموحدين جميع الفروع، التي كانت ممقوتة في السابق مثل الفلسفة، التي ازدهرت ازدهاراً ملموساً، فظهر في مجالسها نجوم كبار، فعمت فائدتها ديار العرب عامة، وانتقلت منها إلى أوروبا لتستمر فيها قرون متعددة من الزمن، وهي أهم ما أخذه الأوروبيون من الثقافة العربية، التي تفوقت على كل ثقافات العصور الوسطى، ولعل فلسفة ابن الطفيل وابن رشد وغيرها مثال على هذا الواقع العربي الإيجابي في عصر الموحدين. كما

---

<sup>1</sup> عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص 24 وما بعدها.

## التعريب ..... العدد الثاني والأربعون - رجب / حزيران (يونية) 2012م

شغل الموحدون دوراً كبيراً في فتح الأبواب الموصدة على مصاريحها أمام التأثيرات العربية، لا لتنتشر في المغرب والأندلس وحسب، بل لتنتشر في كل القارة الأوربية.

وقد توطدت علاقة التعريب في المغرب الكبير والأندلس مع المشرق العربي في عصر الموحدين، وذلك من خلال العلماء من مختلف الاختصاصات، الذين هاجروا من المغرب والأندلس إلى مختلف نواحي المشرق في مصر والشام والعراق والجزيرة العربية، وقد كانت هذه الهجرة واسعة إلى حدٍ لم نعهده في أي وقت من الأوقات، ذلك لأن معظم معاقل العرب بالأندلس، سقطت في هذا العصر في أيدي الإسبان، مما أدى إلى هجرة واسعة من الأندلس إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق.<sup>1</sup>

وقد تجلّى الشعور العربي في نفوس المهاجرين العرب من الأندلس والمغرب إلى المشرق في العديد من المواقف الوطنية الرائعة، من ذلك أنهم شاركوا في العديد من المناسبات الوطنية، مثل الدفاع عن أجزاء من بلاد الشام ومصر في مواجهة الاعتداءات الفرنجية. وأروع ما في هذا الأمر أن المغاربة والأندلسيين، الذي شاركوا في هذه المناسبات، لم يُقبلوا على ذلك بتوجيه من حاكم أو نحو ذلك، بل أُقبلوا على هذا العمل الرائع بفعل شعورهم العربي، الذي ازداد اشتعاله حين وصولهم إلى المشرق العربي، الذي وجدوا فيه البديل الآمن لبلادهم ومواطنهم، التي أُجبروا على هجرها. نذكر من هذه الأعمال الجليلة، ما نفذه خير تنفيذ يوسف بن دوباس المغربي الفندلاوي نزيل دمشق، حينما حاول الفرنجة احتلال مدينة دمشق سنة 543هـ / 1149م، فقد اندفع للقتال غير عابئ بالنصيحة، التي قدمها له حاكم دمشق آنذاك، وهي عدم الاشتراك في الحرب، لكنه مضى إلى غايته بكل رغبة وقبول، وقاتل رحمه الله حتى استشهد بأرض النيرب بالقرب من الربوة في غرب مدينة دمشق، وحمل جثمانه إلى مقبرة باب الصغير حيث دفن، ويعد من الشخصيات المغربية التي طار ذكرها على صعيد

---

<sup>1</sup> جنثالت بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص479. علي أحمد، الدور الفكري للأندلسيين والمغاربة في المشرق، ص317 وما بعدها.



## .....مظاهر التعريب في المغرب الكبير في العصور الوسطى

مدينة دمشق، وظل قبره يزار منّي عام بعد وفاته<sup>1</sup>.

وقد أشار ابن جبير الأندلسي في رحلته إلى الشام، إلى أن مجموعة مغربية كبيرة، كانت قد اشتركت في قتال الفرنجة في هذه الحقبة بالذات كمحاربين أساسيين وكمراقبين للجيش يقومون بتقديم الخدمات، التي لا تقل عن غيرها في ساحات القتال، وهذه المشاركة الطيبة للمغاربة جعلت من حكام مصر والشام، ينعمون على المغاربة بالاحترام والمودة والمساعدة في كل ميدان. لذلك يمكن النظر إلى الوظائف العالية التي نالها المغاربة في القدس بعد تحريرها، على اعتبار أنها تعبير عن المكافأة على خدماتهم والرغبة في استمرار هذه الخدمات في الوقت نفسه<sup>2</sup>.

وفي هذا العصر ظهرت بوادر تعاون عربي على مستوى الدول والحكام، ولكن أنانية الحكام وتمسكهم بمسائل بحتة لا قيمة لها، حالت دون تحقيق هذا التعاون، وقد تجسد ذلك بتلك المحاولة التي جرت في عصر صلاح الدين الأيوبي، حينما أرسل سفارة إلى بلاط الموحدين وطلب منهم مساعدته في كبح جماح الحملات الفرنجية الواردة من الغرب الأوربي، لكن هذه السفارة لم تحصل على وعود إيجابية، وتذرع الموحدون بحجج لم تكن مقنعة على الإطلاق.

هذا وقد ظهرت ملامح التعريب في العصر الموحي في الشعر والأدب، فقد ظهر في هذا العصر جملة من المهتمين طارت شهرتهم في المغرب والأندلس، وبخاصة حينما تصدوا لتصوير الحالة الأساوية المحزنة، التي ألمت في كثير من المناطق الأندلسية. فحينما اضمحل سلطان العرب المسلمين اضمحلالاً واضحاً في عصر الموحدين، وأصبح اعتماد الأندلسيين على المعونات المغربية، وكان من نتيجة ذلك أن أهل المغرب نظروا إلى الأندلسيين نظرة استصغار واستضعاف، فانبرى الأدباء الأندلسيون ينتصفون لأنفسهم. ورسالة أبي الوليد

<sup>1</sup> القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص298. مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، ج8، ص200. ياقوت الحموي، معجم

البلدان. مادة فندلاو الذهبي، العبر في خبر من غير، ج4، ص120.

<sup>2</sup> علي أحمد، الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام، ص302 وما بعدها.

## التعريب ..... العدد الثاني والأربعون - رجب / حزيران (يونية) 2012م

الشقندي ما هي إلا مظهر لهذا المنزع عند الأندلسيين<sup>1</sup>.

ومن أهم الشعراء الذين تمثلت في شعرهم مشاعر الحرص على الوجود العربي بالأندلس، أبو البقاء الرندي الذي اشتهر بقصيدة يندب فيها ما اقتطعه من الأندلس فرناندو الثالث. وقد طار ذكر هذه القصيدة وتداولها الناس، وبلغ من إعجابهم بها أن أضافوا إليها فيما بعد فقرات عن ضياع مدن أندلسية أخرى، كان قد احتلها الإسبان. من هذه القصيدة الأبيات المعبرة الآتية:

|                               |                                      |
|-------------------------------|--------------------------------------|
| لكل شيء إذا ما تم نقصان       | فلا يغتر بطيب العيش إنسان            |
| هي الأمور كما شاهدتها دول     | من سره زمن ساءته أزمان               |
| وهذه الدار لا تبقى على أحد    | ولا يدوم على حال لها شان             |
| أين الملوك ذوي التيجان من يمن | وأين منهم أكاليل وتيجان <sup>2</sup> |

لكن الأهم في قائمة الشعراء والأدباء الأندلسيين، الذين تفجرت فيهم الحمية العربية بكل ألوانها الحريصة على الوجود العربي بالأندلس، هو أبو عبد الله بن عبد الرحمن بن الآبار القضاعي، الذي اشتهر بقصيدة الذائعة الصيت، التي ألّفها بين يدي أبي زكريا بن أبي حفص الموحي، وكان قد قصده في سفارة أرسلها الأمير الموحي صاحب بلنسية في ذلك الحين، وكان الإسبان قد ألحوا في حصارها قال فيها:

|                                |  |
|--------------------------------|--|
| أدرك بخيلك خيل الله أندلسا     | إن السبيل إلى منجاتها درسا               |
| وهب لها من عزيز النصر ما التمت | فلم يزل منك عز النصر ملتصا               |
| وحاش مما تعانيه حشاشتها        | فطالما ذأقت البلوى صباح مسا <sup>3</sup> |

وما يدعو للفخر والاعتزاز والإعجاب، أن العصر الموحي كان عصر تصدير الثقافة

<sup>1</sup> - جنثال بالنتيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص126.

<sup>2</sup> - جنثال بالنتيا، تاريخ الفكر الأندلسي، ص132.

<sup>3</sup> مصطفى صادق الرفاعي، تاريخ آداب العرب، ج3، طبعة القاهرة، 1940، ص 90.

## .....مظاهر التعريب في المغرب الكبير في العصور الوسطى

العربية المتقدمة إلى معظم البلدان الأوروبية، ساعد على ذلك نضوج الثقافة العربية وازدهارها إلى درجة كانت هي المسيطرة من بين الثقافات العالمية. يضاف إلى ذلك أن العرب كانوا قد وصلوا في اتصالاتهم المختلفة إلى مناطق أوروبية شاسعة، كمنطقة البروفانس في جنوب شرق فرنسا، وشمال غرب إيطاليا وشرقها، وسهول سويسرا وجبال الألب وغيرها. كما كانت أعمال السفارة والتجارة من العوامل المساعدة على نقل الثقافة العربية إلى أوروبا. وكذلك المدارس الأندلسية، التي قصدها المبتعثون الأوروبيون ودرسوا بها، ولاسيما طليطلة وقرطبة، ساعدهم في ذلك أن حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية وغيرها من اللغات، كانت نشيطة في هذه المدارس<sup>1</sup>. وقد ركز الأوروبيون على الجوانب التطبيقية من منتجات ثقافة التعريب، مثل علوم الطب والصيدلة، وعلوم الفلك، والرياضيات والفلسفة العقلانية التي أثرت إيجاباً في بعث النهضة الأوروبية وتقدمها، ولاسيما فلسفة ابن رشد، الذي قال عنه الأوروبيون بفخر واعتزاز: (إنه ينتسب إلى أوروبا والفكر الغربي أكثر من انتسابه إلى الشرق والفكر العربي الإسلامي)<sup>2</sup>، والصناعات العربية المتقدمة كصناعة الورق والسكر والمنسوجات والسفن وما إلى ذلك<sup>3</sup>، وعلوم الزراعة وتوطين بعض الزراعات، التي انتقلت من الشرق إلى الأندلس، والفنون الأدبية كالشعر والقصص العربية المعروفة<sup>4</sup>، وهذا مما أدى إلى توسيع مدارك الأوروبيين، وأخذهم بأسباب النهضة في مطلع العصور الحديثة، التي أُنعت ثمرات طيبة، تجسد بما يشهده العالم المتقدم من إنجازات حضارية لم تعرف البشرية لها مثيلاً، وما زالت تتقدم بسرعة مذهلة، على حين تقهقر العرب إلى آخر الدرك الحضاري، فأصبحوا على هامش الشعوب المتحضرة.

وفي سقوط دولة الموحدين بالمغرب والأندلس سنة 668هـ/1270م، ضعفت حركة

<sup>1</sup> علي أحمد، تاريخ الفكر العربي الإسلامي، طبعة جامعة حلب، 1997، ص 129 وما بعدها.

<sup>2</sup> موسوعة العلوم الإسلامية والعلوم الملمسين، ص 68

<sup>3</sup> جورج يعقوب، أثر الشرق في المغرب، ص 55. ابن الآبار، الحلة السيرة، ج 1 ص 297.

<sup>4</sup> أحمد أمين، ظهر الإسلام، ص 189. ج، تراث الإسلام، ص 160 وما بعدها.

## التعريب ..... العدد الثاني والأربعون - رجب / حزيران (يونية) 2012م

التعريب إلى درجة كبيرة، فقد تجزأ المغرب الكبير إلى ثلاث دول، هي الدولة المرينية بالمغرب الأقصى، والدولة الزيانية بالمغرب الأوسط، والدولة الحفصية بالمغرب الأدنى. وفي الأندلس سقطت معظم معاقل العرب هناك، باستثناء المنطقة الجنوبية الشرقية، التي تمثلت بغرناطة وتوابعها، كمالقة ووادي آش. وكانت غرناطة على الدوام هدف حركة الاسترداد الوطنية الإسبانية، التي بلغت أوج نشاطها بعد سقوط دولة الموحدين، مما جعل الغرناطيين يوجهون جل اهتمامهم ونشاطهم إلى مسألة الصمود في وجه الأخطار المحدقة، ولم يكن لحركة التعريب أي حظ من برامجهم، إلا إذا اعتبرنا أن صمودهم اللافت حتى نهاية العصور الوسطى، كان في هذا السبيل أو من هذا القبيل. والدليل على ذلك أنهم، كانوا يُشعرون المشاركة والمغاربة، بأنهم بحاجة للمساعدة الملحة من أجل البقاء والصمود والمحافظة على الوجود العربي بالقارة الأوربية. وقد استجابت لهم دولة بني مرين في المغرب الأقصى، ومدت لهم يد المعونة العسكرية على مدى أكثر من مئة عام، ذلك لأن الدولة المرينية كانت أقوى الدول، التي ورثت حكم المغرب الأقصى من الموحدين، هذا إضافة إلى أن هذه الدولة، تحسست وشعرت بالمسؤولية العربية تجاه دولة بني الأحمر المهددة بالزوال من الأندلس<sup>1</sup>.

ومن أجل المحافظة على الوجود العربي بالأندلس ممثلاً بدولة بني الأحمر بغرناطة، قرر المرينيون اعتماد قوة عسكرية خاصة في غرناطة وما حولها، ترابط فيها بصورة دائمة وتشترك في حروبها الوطنية والدفاعية، وعُرفت هذه القوة في التاريخ الأندلسي والمغربي بمشيخة الغزاة<sup>2</sup>.

ومما أضعف حركة التعريب في المغرب الكبير إضافة إلى انقسامه إلى ثلاث دول، أن مجموعة كبيرة من علمائه من أصل مغربي أو أندلسي، هاجرت إلى المشرق العربي، فأسهمت بقدرٍ لا فت في دعم حركة التعريب، التي كانت متعثرة في مصر والشام بخاصة

<sup>1</sup> ابن الأحمر، روضة النسرين، ص 25. ابن الخطيب واللحة البدرية، ص 92 وما بعدها.

<sup>2</sup> علي أحمد، تاريخ المغرب القديم والإسلامي، ص 247

## .....مظاهر التعريب في المغرب الكبير في العصور الوسطى

بسبب سيطرة المماليك المطلقة على مفاصل الحكم والإدارة، فغابت كل الملامح العربية في هذه المنطقة بعد أن كانت أهم مصدر لثقافة التعريب، لذلك فإننا نعتبر أن مجيء المغاربة إلى مصر والشام في هذه المرحلة، التي تعرف عادة بمدة حكم المماليك، كان أمراً إيجابياً جداً، ذلك أن فريقاً متفوقاً منهم، شارك العلماء المشاركة في تخليد ما يمكن تخليده وحفظه من الثقافة العربية، التي كانوا يؤمنون أنها خير ما يحفظ ويصون هوية الأمة.

فقد أبدع بعضهم في مجال اللغة العربية، وتركوا بصمات خالدة في هذه المجال الحيوي بالنسبة للغة التعريب، نذكر منهم على سبيل المثال ابن مالك النحوي. نزيل مدينة دمشق، ورئيس قسم النحو بالمدرسة العادلية، الذي حصر قواعد النحو والصرف في كتاب صاغه شعراً لسهولة حفظه، هو "كتاب الألفية"<sup>1</sup>، ومحمد بن يوسف أنير الدين "أبو حيان الغرناطي" نزيل مدينة القاهرة، الذي اشتهر بالنحو والأدب تأليفاً وشرحاً وما إلى ذلك<sup>2</sup>، والأديب الشاعر البوصيري، الذي اشتهر من خلال قصيدته البردة، التي مدح فيها رسول الله (ﷺ)، ومدح رسول الله زمن المماليك كانت له أهداف كبيرة، منها التذكير بأنه (ﷺ) من الأمة العربية، التي غلبت على أمرها في غفلة من أهلها، وابن أبي حجلة التلمساني، الذي ألف كتاباً هامة، تدل على غنى العرب بتراثهم وثقافتهم، مثل ديوان الصبابة، ورسالة الهدد، وكتاب السكردان وغيرها.<sup>3</sup>

وفي مجال علم الاجتماع كان الأمر رائعاً، حينما ابتكر المغاربة هذا العلم لأول مرة في تاريخ البشرية على يد ولي الدين عبد الرحمن بن خلدون، الذي وضع فيه المنجزات العربية العلمية والثقافية، التي عم نفعها الإنسانية برمتها، تبحث في طبيعة العمران، أي الأنشطة البشرية على الأرض. لذا فقد عدّ ابن خلدون مبتكر علم الاجتماع بلا منازع. يقول المقرئ

<sup>1</sup> الصفدي، الوافي بالوفيات، ج3، ص 539

<sup>2</sup> شذرات الذهب، ج6، ص145

<sup>3</sup> الذهبي، العبر، ج5، ص 359، ابت تغري بردي، النجوم من الزاهرة، ج11، ص131.

## التعريب ..... العدد الثاني والأربعون - رجب / حزيران (يونية) 2012م

عن مقدمته: (لم يعمل مثلها وإنه لعزیز أن ينال مجتهد منالها، إذ هي زبدة المعارف والعلم ونتيجة العقول السلمية)<sup>1</sup>.

وقد أسهم المغاربة من جهة أخرى في هذه البرهة في قضايا الدفاع عن الشام على وجه آخر، يختلف عن الوجوه المألوفة أي في ساح المعارك وما إلى ذلك، وقد تجلّى هذا الوجه بالدبلوماسية الفذة، التي نجحت على يد ابن خلدون لدى تيمورلنك، الذي كان جيشه قد احتل مدينة دمشق حتى سنة 804هـ - 1402م، فقد جاء ابن خلدون من مصر مندفعاً بحسه العربي الصادق، الذي تفجر عنده على أثر الجرائم التي اقترفتها تيمورلنك بمدينة دمشق من أعمال قتل وسلب وتدمير منشآت ومنازل، جاء من مصر مع جيش السلطان الناصر فرج، الذي لم يشترك مع جيش تيمورلنك، فقد دخل ابن خلدون في ظلمة الليل من فوق أحد أسوار المدينة مشدوداً بالحبال، فسقط في قبضة الحرس، وتخلص منهم وتقدم إلى تيمورلنك والتقى معه، وقد بهر تيمورلنك بحديث ابن خلدون ورأيه السديد وتوجيهاته الغالية، وبخاصة دعوته تيمورلنك إلى غزو المغرب الكبير والسيطرة عليه، لأن ابن خلدون كان يريد للمغرب الكبير أن يتوحد مع المشرق ولو تحت السلطة الأجنبية، التي كانت ستزول وتنتهي بعد حين، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنه كان يريد لقوة تيمورلنك أن تضعف وتتبدد من خلال انتشارها على رقعة واسعة من الأرض، فيكون بذلك قد خلص العرب في مصر والشام من خطر، استمر في تهديد المنطقة على مدى مئتي سنة تقريباً. وذاكره بعد ذلك في مسألة التوقف عن استباحة مدينة دمشق وتدميرها، على الرغم من أن معظم أجزائها كانت قد دمرت، فقد أدى تدخل ابن خلدون عند تيمورلنك إلى التخفيف من هذا التدمير<sup>2</sup>.

ومن حسن الحظ أن بعض المغاربة، استطاعوا أن يكسروا الحاجز المملوكي في سبيل عدم

<sup>1</sup> السخاوي، الضوء اللامع، ج4، ص 147.

<sup>2</sup> ابن عريشاه، عجائب المقدور في أخبار تيمور، ص 98 وما بعدها. محمود الباجي، عبد الرحمن بن خلدون، ص 58.

## .....مظاهر التعريب في المغرب الكبير في العصور الوسطى

دخول العرب أو اشتراكهم في مفاصل القيادة الهامة، ومن ذلك توصل بعض المغاربة إلى أرفع المناصب البحرية المصرية في البحر المتوسط، مثل شهاب الدين أبو العباس المغربي، الذي شغل منصباً قيادياً رفيعاً، حتى كان يدعى الرئيس. وكذلك الحاج محمد التازي المغربي، الذي تسلم قيادة أسطول مصر سنة 679هـ / 1368م، هذا إضافة إلى مجموعة كبيرة مغربية، عملت بمدينة الإسكندرية بصورة دائمة. وقد دلت الأحداث التي ذكرها المؤرخون عن مشاركة المغاربة في أعمال البحر، أنه لم يكن في سلاح البحرية المصرية أشجع من أهل المغرب<sup>1</sup> الذين برهنوا بقوة عن وفائهم لعروبته وأمتهم.

أما ما ينبغي أن نلفت النظر إليه في مجال التعريب في المغرب الكبير، أنه منذ الأيام الأولى لوصول العرب إلى المغرب الكبير، بدأوا بتعليم الناس ثقافتهم وعلومهم، لأنهم وجدوا فيها أهم الأسباب التي تجعل المغرب الكبير عريباً صريحاً وقوياً. وقد استمرت هذه المسيرة الطيبة طوال العصور الوسطى، فلم تقصر فيها أية دولة على الإطلاق. ونضرب على ذلك أمثلة من بداية هذه المسيرة المظفرة، ما فعله عقبة بن نافع الفهري بعد انتهائه من بناء مدينة القيروان سنة 55هـ / 675م، حينما أمر بعض أصحابه بتعليم الناس ثقافتهم، وفعل الشيء نفسه موسى بن نصير، حينما أرسل إلى المغرب الأقصى سبعة عشر عالماً، ليعلموا الناس ما يستطيعون من ثقافة العرب. وكان أعظم الأوقات في هذا الشأن مدة حكم الوالي إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر، الذي ركز على مسألة التعليم ونشره الثقافة العربية بين أكبر عدد من المغاربة. واشتهر في عصره عشرة من التابعين، الذين أرسلهم الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز بنفسه<sup>2</sup>. وقد بذل هؤلاء التابعون جهوداً عظيمة، استنفدت كل إمكانياتهم العلمية والجسدية. مع أن مدة حكم هذا الوالي كانت قصيرة جداً، فإنها تركت أثراً طيباً بالمغرب الكبير في ميدان الثقافة بعامة.

<sup>1</sup> ابن جبير، الرحلة، ص 34-35. اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج3، ص86. المقرئ، السلوك لمعرفة دول

الملوك، ج3، قسم1، ص 113 و 129 و 159

<sup>2</sup> انظر تراجم هؤلاء التابعين : المالكي، رياض النفوس، ج1، ص64 وما بعدها.

## التعريب ..... العدد الثاني والأربعون - رجب / حزيران (يونية) 2012م

وأهم من كل ما تقدم كان دخول القبائل العربية من هلال وسليم إلى المغرب الكبير، ذلك أن هذه القبائل شكلت أهم عنصر من عناصر حركة التعريب، ابتداء من الربع الأول من القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي حتى خروج الفاطميين من المغرب الكبير في سنة 361هـ/ 972م، فحينما انتقل الفاطميون من المغرب الكبير إلى مصر، حل محلهم مباشرة مجموعة القبائل السابقة الذكر، وهي قبائل حجازية كانت قد انتقلت إلى مصر بفعل تنقلها من منطقة إلى أخرى. وحينما وصل الفاطميون إلى مصر، أمروا هذه القبائل بالتوجه إلى المغرب الكبير، وذلك بعد الاتفاق معهم على خطة معينة<sup>1</sup>.

ومع مرور الأيام استطاعت هذه القبائل أن تنتشر في أرجاء المغرب الكبير، وقد أدى هذا الانتشار إلى نتيجة هامة جداً، تجسدت على أرض الواقع في تعزيز مسيرة التعريب من خلال سيطرة اللغة العربية، التي أصبحت لغة الثقافة الوحيدة هناك منذ عدة قرون<sup>2</sup>. لكن ابن خلدون اتهمهم بالمسؤولية عن الخراب واليباب، الذي حصل في المغرب في مدة دخولهم إليه ثم بعد ذلك بمدة قصيرة، لكن ابن خلدون لم يكن منصفاً في كل ما قاله عنهم، لأنه لا يمكن لأحد أن يحملهم أي شيء مما حدث في المغرب الكبير من تخريب للمعمور أو تخريب للمزروع، ذلك لأنهم لم يكونوا يحملون أية أحقاد سابقة على أي طرف من الأطراف المغربية المختلفة. وما حدث هو أن المغاربة أنفسهم، هم الذين أقحموهم في خلافاتهم ومشاكلهم وحروبهم، ودليل ذلك أن هؤلاء العرب، لم يقيموا لأنفسهم أية دولة أو كيان سياسي خاص، فالذي يستطيع فعل الخراب يكون قوياً ومقرراً في الوقت نفسه، وهذا ما لم يتوفر للهلاليين العرب على الإطلاق. فخراب القيروان كان قد حصل قبل مجيء هذه القبائل إلى المغرب الأدنى، وكان ذلك من قبل الصنهاجيين، الذين نقلوا الحركة الاقتصادية العامة إلى مدينة صبرة أو المنصورية في سنة 405هـ/ 1014م<sup>3</sup>. وما نستطيع قوله في هذا المجال، أن القبائل الهلالية شغلت دوراً إيجابياً،

<sup>1</sup> المقرئزي، *اتعاظ الحنفا*، ص 224. ابن خلدون، *العبر*، ج6، ص27 وما بعدها.

<sup>2</sup> ابن خلدون، *المقدمة*، ص 265. ابن عذاري، *البيان المغرب*، ج1، ص 228.

<sup>3</sup> القاضي عياض، *المصدر السابق*، ج3 - 4، ص626.



## .....مظاهر التعريب في المغرب الكبير في العصور الوسطى

أضفى على حواضر المغرب الكبير ثوباً جديداً، تجلى بأن أعطاها عزماً وقوة لعمل مزيد من التعمق بالتعريب والتطوير والتهديب.

بقي أن نشير إلى أن آثار التعريب، كانت كبيرة في المغرب الكبير وفي المناطق المجاورة، فعروبة المغاربة اليوم هي استمرار لحركة التعريب، التي بدأت منذ وصول الفينقيين إلى المغرب الكبير حتى نهاية العصور الوسطى.

كذلك فقد تركت حركة التعريب آثارها في بعض المناطق الأوربية حتى اليوم، ولا سيما في جزيرة مالطة وجزيرة صقلية وفي شرقي إيطاليا، لكن أكبر أثر هو في جزيرة مالطا، التي دخلها العرب في عصر الأغالبة سنة 225هـ / 868م، ومع أن الاستقرار العربي في هذه الجزيرة لم يكن طويلاً كما في المناطق سابقة الذكر، باستثناء مجموعة من العاملين في مجال صناعة السفن ومراكب الصيد البحري، فما تزال لغة أهل مالطة حتى اليوم هي اللغة العربية باللهجة المغربية، مع بعض مفردات اللغة الإنكليزية<sup>1</sup>.

---

<sup>1</sup> الحميري، الروض المعطاء، ص 52. الفوزيني - آثار البلاد، ص 557. أحمد المدني، المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا، ص 75 وما بعدها.

**التحريب ..... العدد الثاني والأربعون - رجب / حزيران (يونية) 2012م**